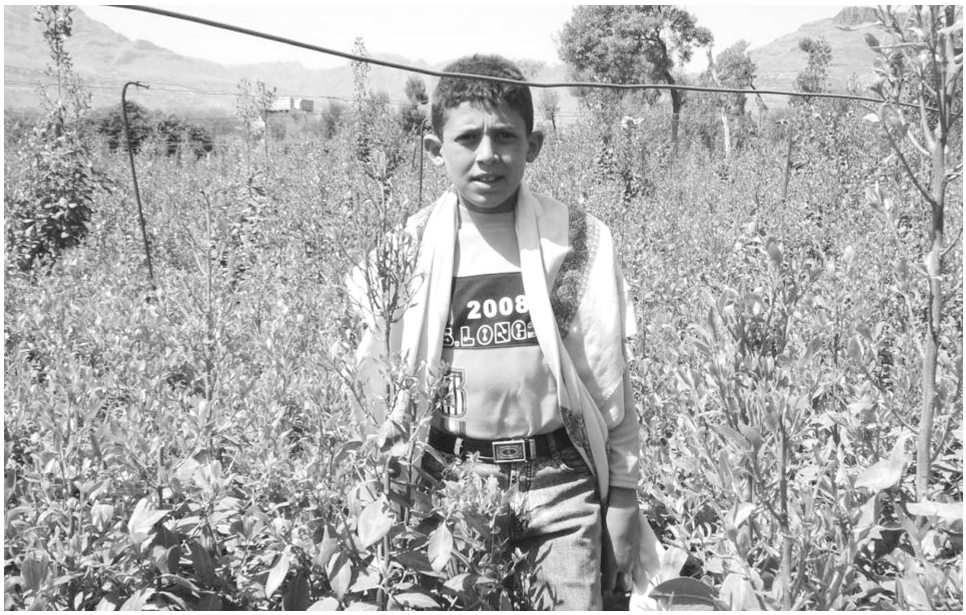

القات باليمن نقمة وبلاء.. فهل يمكن أن يصبح نعمة وعطاء؟

د.محمود عبدالقوى زهران

أستاذ البيئة النباتية

كلية العلوم - جامعة المنصورة

قبل الاجابة عن هذا السؤال فإننى أرى أنه من الواجب على أن أقدم للقارىء نبذة عن هذا النبات(القات) الذى يطلق عليه(الشيطان الأخضر) «أو»شجرة الأنس«أو»« نبات السلوى والبلوى» الخ، وعلى الرغم من أضراره البالغة سواء منها الاقتصادية أو الصحية أو الاجتماعية، إلا أننى أختلف مع من أطلق هذه الصفات غير الحميدة على نبات أخضر خلقه الله سبحانه وتعالى كباقى النباتات المنتشرة فى أنحاء الكرة الأرضية لمصلحة البشرية، وقطعا لم يخلقه الله تعالى ليكون مصدرا للضرر ونقمة على الإنسان، إلا أن الإنسان صاحب النفس الأمارة بالسوء هو الذى جعل من هذا النبات الأخضر المعطاء وسيلة شيطانية يعود عليه بالضرر والأمراض والفقر والجهل و الكسل والخمول ومن ثم عدم الإنتاج.

ماهو القات؟

نبات القات (catha edulis) هو شجرة دائمة الخضرة كثيرة التفرع ذات أوراق كثيفة متقابلة ومتبادلة بيضاوية لونها أخضر فاتح لامع يميل إلى الحمرة فى الأوراق المتقدمة فى العمر. ويعتبر العالم الدانمركى E.Forsskal أول عالم نباتى تعرف على هذا النبات وأعطاه الاسم العلمى وصنفه ضمن أنواع الفصيلة السيلاستيريه Family ce-lastreceae يتراوح ارتفاع شجرة القات من بين ١٠-١ م تبعا لعمرها الذى تنمو فيه.

القات والانسان اليمنى

يعتبر القات الحلقة التى تدور معظم أحاديث اليمنيين حولها. فهو الظاهرة الفريدة التى يتصف بها شعب اليمن دون غيره من شعوب العالم سواء منها المتقدم وغير المتقدم، ورغم غلاء أسعار أوراق هذا النبات المطرد، وذلك لازدياد الطلب عليه داخل اليمن فقط ومردوداتها السلبية على الصحة والمال والمجتمع بصفة عامة. نجد الإقبال عليه شديدا بحيث أصبح تقليدا شعبيا يمارسه كل من الجنسين وبمختلف الأعمار، وبأعداد كبيرة تصل إلى حوالى ٩٠٪ من إجمالى عدد اليمنيين وخاصة بالشطر الشمالى من اليمن. فلا غنى عن مضغ القات للطالب اليمنى(أو الطالبة اليمنية) ليستطيع المذاكرة، وأيضا للعامل ليستمر فى عمله، أما الموظف فإنه يسرع بعد الساعة ١٢ ظهرا خارج مقر عمله ليشترى القات ضاربا عرض الحائط بمصالح الأهالى المترددين عليه.. وهناك عديد من الأسر اليمنية لا تجد قوت يومها لأن عائلها اشترى القات بما تحصل عليه من أجره اليومى.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عملية تخزين القات

لا يمضع من شجر القات ألا أوراقه الغضة صغيرة العمر الموجودة على أطراف الأفرع حيث يتناول المتعاطى غصنا من أغصان شجرة القات، ويقطف أوراقه الغضة وبالبراعم الصغيرة الرطبة ثم يمسحها بيده ويضعها فى فمه دون غسلها، وربما تكون هذه الأوراق مبودرة، أى تعرضت للرش بالمبيدات الحشرية، ثم يبدأ فى مضغها تدريجيا بحركة رحوية وتظل فى شدقة حتى يستحلب كل عصيرها مع الماء(أو زجاجات المياه الغازية) وتستغرق هذه العملية من ٥ -٨ دقائق ثم يكرر العملية نفسها حتى انتهاء فترة المضغ. ولكى يتم الامتصاص فإن متعاطى القات يكون كرة بلسانه ولعابه من الأوراق ويخزنها بين الأسنان والوجنة حتى يتم امتصاص عصارتها تماما، ومن هنا جاءت

تسمية هذه العملية «بالتخزين» وهى تتم فى جلسات خاصة يجتمع فيها اليمنيون بعد ظهر كل يوم وذلك للاعتكاف فى مكان هادىء لبضع ساعات ربما تصل إلى ٦-٧ ساعات(من ٣ عصرا حتى ١٠ مساء) وهم متكئوم فى جلسات تقليدية يمضغون القات ويشربون الماء(أو المياه الغازية) ويتخللها تدخين الشيشة(المداعة - النرجيلة) وخلال هذه الجلسات تدور مناقشات حول القات وآخر أسعاره أو حول القضايا الأدبية والفكرية أو بعض المناقشات السياسية والاجتماعية - أما أصحاب المهن المساعدة كالسائقين والعمال فتراهم وقد انتفخت إحدى وجناتهم وهو يقوم بعمله وقلما تشاهد يمنياً واحداً يسير فى الشارع أو راكبا المواصلات العامة أوسائقا لسيارته بعد الساعة ٣ عصراً إلا وهو فى حالة تخزين للقات، وللأسف الشديد.. وبطبيعة عملى فى جامعة صنعاء حضرت اجتماعات عديدة بعد الساعة ٣ مساء فليس مستغربا أن تجد كل اليمنيين المشاركين معنا فى الاجتماع ومعهم حزم القات والمياه الغازية يخزنون أثناء الاجتماع.. وهكذا أصبح تخزين القات مؤثرا على كل الأفراد اليمنيين لافرق بين جاهل ومثقف وعالم وصيدلى وطبيب ومدير ولاطالب ولا أستاذ ولارجل ولا امرأة.. الكل سواء والكل(إلا الندرة القليلة جدا) يؤكد أهمية القات لتسيير مجرى حياته.

ويتناول متعاطى القات عادة حزمة واحدة خلال جلسة القات وقد تزداد الكمية إلى حزمتين أو ثلاث حزم ويبلغ متوسط مايمضغه المتعاطى من أوراق القات، وأغصانه الغضة حوالى ١٠٠ جرام، وقد يرتفع الاستهلاك إلى ضعف الكمية المذكورة أو قد ينخفض إلى النصف وفى كل حفلات الأفراح أو المآتم يكون القات هو المشارك الأعظم ولاغنى عنه على الإطلاق

ويشترط على العريس أن يدفع المهر+ حق القات.

هل للقات فوائد للمتعاطين؟

يقول حمود منصور (١٩٨٨) أن هناك فوائد يدعيها مدمنو القات حتى يسوغوا إدمانهم له، ويتمكنوا من ضم أكبر عدد من اليمنيين وغير اليمنيين العاملين باليمن إلى جلساتهم.. أهمها مايلى:

١ - تخزين القات وسيلة لزيادة الفهم وإنعاش النفس وإدراك الدقة فى العمل والإبداع فى الصنع والبلوغ إلى أفضل مايراد من العاملين والمفكرين والصناع.

٢- علاج ضد السمنة ويناسب من يريد خفة الوزن.

٣- يقوى المقدرة الجنسية عند الرجال

٤ - يقلل نسبة داء السكر ويقلل ضغط الدم وتصلب الشرايين.

٥- زراعة القات تعود على الريف بفوائد اقتصادية مهمة

٦ - يتم مضغ القات لقضاء الوقت والهروب من الملل.

وبمقارنة الفوائد المذكورة أعلاه بمايقوله مدمنو الحشيش وماكستون فورت وعقارات الهلوسة الأخرى نجدها مشابهة.

أضرار القات على صحة الإنسان

تظهر أضرار القات بوضوح على المدمنين عليه وإن كانوا لايعرفون أن ما بهم من علل هى بسبب القات، وذلك إما لجهلهم بأضرار القات أو لعدم تمكنهم من ترك القات، بل يظن مدمنو القات أن تخزين هذا النبات يساعدهم على الشفاء من عللهم، ودليلهم على ذلك أنهم يشعرون براحة عندما يتناولون القات أثناء مرضهم الذى سببه القات، وهذه هى المصيبة الكبرى.

أظهرت البحوث العلمية المتعددة التى أجريت باليمن على كثير من مدمنى القات أن لهذا النبات تأثيراته الجسمية والنفسية.

ومن تأثيرات القات الجسدية مايلى:

١- نقص الشهية للأكل ومن ثم مرض سوء التغذية وفقر الدم.

٢ - أمراض الجهاز الهضمى منها الإمساك وانتفاخ البطن.

٣- التهاب اللوزتين

٤ - تليف الكبد.

٥ - السل الرئوى.

٦ - سرطان الرئة.

٧ - التهاب الفم وجفافه وشعور المتعاطى للقات بالعطش دائماً.

٨ - مرض البواسير نتيجة للإمساك المزمن.

٩ - ضعف بنية المدمنين

ممايؤثر على طاقتهم فى العمل.

١٠ - نقص الحليب لدى الأمهات المرضعات.

١١- يشكو ماضغو القات من التغيرات التى تطرأ على علاقاتهم الجنسية مع زوجاتهم ويصاب أغلبهم بالسيلان المنوى (سلس المنى) دون أى مثيرات جنسية، ولذلك نجد بأن معظم المصابين من الرجال فى المساجد اليمنية يخلعون سراويلهم عند دخولهم المسجد للصلاة لنجاسة هذه السراويل، وهذه ظاهرة تشاهد فى اليمن فقط، وهذا بالطبع يؤثر سلبيا على القدرة الجنسية لدى الرجل.

الأضرار النفسية

١ - الأرق والاكتئاب

غالبا مايقضى مدمنو القات جزءا كبيرا من الليل فى حالة شرود ذهنى، وسبب هذا القلق هو مادة الكاثينون Cathinone وبعد فترة من مضغ القات يشعر الفرد بالبرد فى أطرافه ويميل إلى الصمت وضيق الصدر مع عصبية أوتوتر عنيف لفترة طويلة من الليل لذا يلجأ ضعاف الايمان إلى شرب الخمور بقصد فسخ مفعول القات وإثارة الشهية للأكل والجنس.

٢- القلق النفسى والعصبى

بعض أنواع القات تنبه آكليها أكثر من اللازم فعندما ينفرد المدمن بنفسه يغرق فى عالم الخيال مما يجعله يعيش بعيدا عن الواقع المعاش، وهذه حقيقة واقعة عايشها كل من عمل باليمن من غير اليمنيين لفترات قصيرة أو طويلة وإننى قد دعيت كثيرا لحضور جلسات القات بل لتخزينه لأنه - كما يعتقدون - «لو جربته مرة فلن أتركه أبدا وبعد جلسة التخزين يمكننى «رؤية» القاهرة والإسكندرية وأنا موجود فى صنعاء، وهكذا يكون الخيال الذى يقع فيه متعاطى القات.

وبتكرار السهر النا تج عن زيادة الكميات المستعملة فى التخزين ولفترات متداخلة يؤدى

بالمدمن إلى الشك فيمن حوله، وبالتالى ربما يصل به إلى الاعتداء على الآخرين، وهذا يعنى شبه الجنون.. وفى بعض الأحوال النادرة يؤدى إلى الجنون الكامل.. وكل ذلك يحدث بالطبع لمن يتعاطى القات بصفة مستمرة، أما من يتناولونه فى المناسبات فقط فتأثيره عليهم محدود للغاية بل لايكاد يذكر.

كيف يصبح القات نعمة وعطاء باليمن؟

بعد هذه الجولة السريعة - صديقى القارىء - عن نباتات القات فى اليمن فالمطلوب إجابة هذا السؤال، ومن وجهة نظرى فإن الإجابة عنه لتحقيق الهدف الأسمى فى تحويل القات إلى نعمة وعطاء بدلا من كونه نقمة وبلاء - ليست بالأمر السهل وفى الوقت نفسه ليست بالأمر الصعب أو المستحيل تنفيذه مادمنا نملك العقل والتفكير والإرادة.

قال الله سبحانه وتعالى «إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» صدق الله العظيم. لقد أعطى الله سبحانه وتعالى للإنسان إرادة التغيير، ومن ثم فإن الإنسان هو الذى يستطيع أن يغير أحواله كما يشاء، وهذا يعنى أن مسئولية تحويل القات من كونه نقمة إلى نعمة تقع على كاهل كل المفكرين والبحاث لإيجاد الوسيلة الفعالة والناجحة لذلك، ولن يعجزوا أبدا مادامت هناك الرغبة والإرادة والتكاتف بين الجميع.. لقد أصبحت زراعة القات وتجارته مصدرا للربح الوفير للصفوة من القوم الذين يمثلون مع أسرهم أقل من ٥٪ فقط من جملة عدد مواطنى اليمن، وباقى الشعب هو المستهلك الرئيسى للقات، وصفوة القوم هم زعماء القبائل الكبرى الذين يمتلكون كل شىء وكل قبيلة لديها قوة عسكرية مسلحة تسليحا كاملا، ومن ثم فقد يكون صعبا للغاية بل مستحيلا على الأقل فى الوقت الحالى اقتراح القضاء على زراعة القات وتجارته حتى ولو تدريجيا باليمن، وكان من يقترح ذلك يكون كمن يضرب رأسه فى الحائط دون جدوى.. لقد حاول الكثيرون من قبل وخاصة بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣ وأصدروا قرارات سياسية لإزالة زراعة القات، ولكن لم تكن هذه القرارات إلا حبرا على ورق.. ولم يفكروا لحظة فى كيفية تنفيذها لسبب بسيط أن جميع السادة الحاكمين من وزراء وماتحتهم ومافوقهم يمتلكون هم شخصيا أو قبائلهم مساحات شاسعة من زراعات القات، فكيف يخربون على أنفسهم، ويقضون على مكاسبهم الشخصية؟

إن المشكلة عميقة الجذور ومتشبعة فى اتجاهات متعددة، وبناء على هذا الموقف يجب على المفكرين والباحثين أن يقترحوا وسائل أخرى مقبولة من الجميع، دون الاضرار بمن يزرعون القات أو يتاجرون فيه.. فكيف يكون ذلك؟

من وجهة نظرى - وأرجو ألا أكون مخطئا - فهناك أوجه حسنة فى زراعة نبات القات

فى اليمن لو استغل ذلك استغلالاً رشيداً، لأمكننا تعرف الطريق الصحيح للاستفادة من هذه الشجرة، ومنها:

١- الخبرة الجيدة لدى الفلاحين والمزارعين اليمنيين فى زراعة القات.

٢ - المحصول الوفير الذى ينتج سنويا والذى يدل دلالة قاطعة على أن البيئة اليمنية (مناخ - تربة - ماء) صالحة تماما للإكثار من زراعة القات باليمن.

٣- حب الشعب اليمنى لشجرة القات سواء كانوا مزارعين أو تجاراً أوحتى مستهلكين - لقد أصبحت شجرة القات رمزا من رموز اليمن فى هذه الحقبة من الزمن.. ومن ثم فإنهم جميعا متشوقون إلى من يمد إليهم اليد لإنقاذهم من هذه المحنة بحل آخر غير القضاء على القات.

وانطلاقا من إيماننا بأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق النبات كله دون استثناء إلا لمصلحة البشرية، أى أن كل النباتات فيها منافع للناس، ولكن ربما يكون فى بعض منها منافع وأضرار فى الوقت نفسه ولنضرب مثلا بالعنب والتفاح والبلح فهذه الفواكه الجميلة المحببة إلى نفوسنا جميعا بفائدتها للجسم ولطعمها الشهى سعى الإنسان - صاحب النفس الأمارة بالسوء - إلى استخدامها كمادة خام فى صناعة الخمور الضارة بالصحة.. وكما هو معروف فإن كل النباتات التى يزرعها الإنسان فى أيامنا هذه (زراعات الحبوب - الفاكهة - الخضر - المراعى - الأخشاب.. الخ) كانت كلها نباتات برية، وعرفها الإنسان تبعا لحاجته وذكائه الفطرى على أهميتها له ، فاستغلها استغلالاً صحيحاً فى مأكله وملبسه ومسكنه وكل أموره الحياتية وأيضا استغل بعضها فى صناعات الخمور والمخدرات فلماذا لا يكون القات مثل هذه النباتات التى لها فوائد وأضرار فى الوقت نفسه. فالظاهر أمامنا أن القات لايزرع إلا للحصول على أورقه الخضراء لاستخدامها فى عملية التخزين الضارة بالصحة والاقتصاد، ولكن وبالتأكيد فإن هذا النبات (القات) له وجه آخر حسن مفيد للإنسان، فلو تكاتف الجميع لتعرف هذا الوجه الحسن فى كل أجزاء القات(الأوراق - الأزهار - الثمار - البراعم - الأفرع - السيقان - الجذور) وبواسطة البحوث متعددة الاتجاهات - فإننى لعلى يقين بأنه سيمكن الاستدلال على أهمية اقتصادية لهذا النبات ومن ثم يمكن استغلال محصوله الخضرى (الثمرى) الوفيرين واستخدامها كمادة أولية فى إحدى الصناعات الحيوية ذات المردود الاقتصادى الكبير مثل صناعة الأدوية والزيوت الطيارة والتى يمكن تصديرها خارج اليمن.

إن البحث العلمى ولاشىء غير البحث العلمى هو الطريق الأمثل الذى سيقودنا إلى الاستغلال الأمثل لزراعات القات الشاسعة باليمن وعندما يرى الإنسان اليمنى بكل طبقاته أن القات يمكن أن يدر عليه دخلا ماليا جيدا من الخارج سيفكر ألف مرة قبل استخدام أوراقه واستهلاكها فى غير ما يفيده ويفيد بلده واقتصادها.